غسان كنفاني... نشأته وحياته...

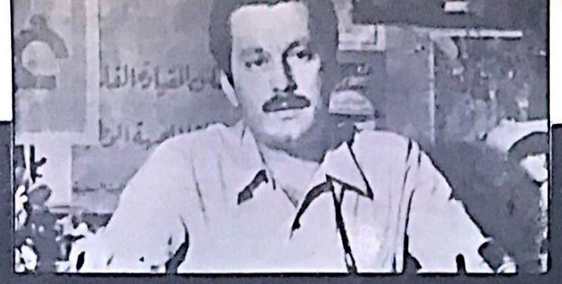

■ بقلم: فاروق عنـدور ■

فاروق عندور ابن خالة الرفيق غسان ورفيق جميع مراحل حياته ، شدتهما الى بعض علاقة حميمة كانت اكبر من صلة القرابة ، وادفا حتى من الصداقة .. وكان طبيعيا ان تحاول « الهدف » في عددها الخاص عن الرفيق الشهيد غسان ، اعتصار بعض ما عند فاروق من غسان الاخ وغسان الصديق وغسان الرفيق .. فكانت كلمات فاروق : « غسان اخي » . و « غسان كنفاني : حياته ونشأته » و « اروع ما كتبت لي .. » .

• والـده •

خرج ابوه من اسرة عادية من اسر عكا وكان الاكبر لعدد غير قليل من الاشقاء . وبما ان والده لم يكن مقتنعا بجدوى الدراسات العليا فقد اراد لابنه ان يكون تاجرا او كاتبا او متعاطيا لاي مهنة عادية ولكن طموح الابن ابى عليه الا ان يتابع دراسته العالية فالتحق بمعهد الحقوق بالقدس في ظروف غير عادية . صغر البدين من النقود وحتى من التشجيع فما كان عليه الا ان يكل على جهده الشخصي لتامين حياته ودراسته فكان تارة ينسخ المحاضرات لزملائه وتارة يبيع الزيت الذي يرسله له والده ويشتري ببدل ذلك بعض الكاز والمأكل .. وبشارك بعض الاسر في مسكنها . الى ان تخرج كمحام . وعاد الى عكا ليتزوج من اسرة ميسورة ومعروفة وشد رحاله للعمل في مدينة يافا حيث مجال العمل ارحب ولبيني مستقبله هناك .

وكافح هناك وزوجه الى جانبه تشد ازره وتشاركه المراء والضراء ونجح ، وكان يتراقع في قضايا معظمها وطني خاصة اثناء ثورات فلسطين واعتقل مرارا كانت احداها بايعاز من الوكالة اليهودية .

وكان من عادة هذا الشاب تدوين مذكراته يوما بيوم وكانت هي اعز ما يحتفظ به من متاع الحياة وينقلها معه حيثما حل او ارتحل . وكثيرا ما كان يعود اليها ليقرأ لنا بعضها ونحن نستمتع بالاستماع الى ذكرياته كحاكه ، فقد كان فريدا بين ابناء جيله . وكان هذا الرجل العصامي ذو الاداء المتميزة مثلا لنا يحتذى .

هذا هو والد غسان كنفاني الذي كان له بدون شك اثر كبير في حياة ثالث ابنائه غسان .

• غسان الطفل •

هو الوحيد بين اشقائه ولد في عكا ، فقد كان من عادة اسرته قضاء فترات الاجازة والاعياد في عكا . ويروى عن والدته ان امه حين جاءها المخاض لم تستطع ان تصل الى سريرها قبل ان نضح وليدها وكاد الوليد يختنق بسبب ذلك وحدث هذا في التاسع من نيسان عام ١٩٣٦ .

كان من نصيب غسان الالتحاق بمدرسة الغرير بيافا وكان نحسده لانه يدرس اللغة الفرنسية زيادة عما ندرسه نحن . ولم تستمر دراسته الابتدائية هذه سوى بضع سنوات . فقد كانت اسرته تعيش في حي المنشيه بيافا وهو الحي اللاصق لتل ابيب وقد شهد اولى حوادث الاحتكاك بين العرب واليهود التي بدات هناك اثر قرار تقسيم فلسطين . لذلك فقد حمل الوالد زوجه وابناءه واتى بهم الى عكا وعاد هو الى يافا . اقامت العائلة هناك من نيسان عام ٤٧ الى ان كانت احدى ليالي اواخر نيسان ١٩٤٨ حين جرى الهجوم الاول على مدينة عكا . بقي المهاجرون خارج عكا على تل الفخار (تل نابليون) وخرج المناضلون يدافعون عن مدينتهم ووقف رجال الاسرة امام بيت جدنا الواقع في اطراف البلد وكل يحمل ما تيسر له من سلاح وذلك للدفاع عن النساء والاطفال اذا اقتضى الامر . ومما يذكر هنا ان بعض ضباط جيش الانقاذ كانوا يقفون معنا وكنا نقدم لهم القهوة تباعا علما بان فرقتهم بقيادة اديب الشيشكلي كانت ترابط في اطراف بلدتنا .

وكانت تتردد على الافواه قصص مجازر دير ياسين ويافا وحيفا التي لجأ اهلها الى عكا وكانت الصور ما تزال ماثلة في الاذهان . في هذا الجو كان غسان يجلس هادئا كعادته ليستمع ويراقب ما يجري .

استمرت الاشتباكات منذ المساء حتى الفجر وفي الصباح كانت معظم الاسر تغادر المدينة وكانت اسرة غسان ممن يسر لهم المغادرة مع عديد من الاسر في سيارة شحن الى لبنان فوصلوا صيدا وبعد يومين من الانتظار استاجروا بيتا قديما في بلدة الغازية قرب صيدا في القصى البلدة على سفح الجبل ، استمرت العائلة في ذلك المنزل اربعين يوما في ظروف قاسية اذ ان والدهم لم يحمل معه الا النذر اليسير بقياسهم ، ذلك ان نهايتهم الجسدية تعني بداية طريقهم التي اختاروها .. الموت .. رفيقك هذا الاخر الذي كنت تتحدث عنه في الغد .. الموت الكبير الذي ابيت الا ان تكونه .. كنت في حياتك الامثولة الرمز وابيت في استشهادك الا ان تكون الامثولة الرمز .. تعمد الكلمة بالدم .. دمك الذي ارتوى بحب وطنك .. فلسطين التي كنتها .. وكانت فيك .. شفافية مشفك لها كما لم يعشق فيس ليلى ..

غسان اخي ،

بكتابك الناشىء لانا لم نكن في مستوى رجولتك .. تحديت الموت كما كنت تتحدى الضياع والياس والانسحاق .. جعلتنا نحس بالتفاهة امام استشهادك باشد مما كنا نحس بها اثناء حياتك .. نعدو .. نعدو .. وهيهات ان نلحق بك ..

غسان اخي ،

انت تعرف كم اخاف عليك .. كم احبك .. كم اعشق كلماتك .. كم سرت معك .. خلفك .. خلفك .. كم تمنيت ان اكون امامك مرة واحدة .. ارحل قبلك لتكتب في رحيلي كلمة واحدة .. حرفا واحدا من احرف كلماتك التي طالما عشقتها ..

ولكن لماذا هشمت علي بهذه يا غسان .. لماذا .. لماذا ؟ ■

واحيانا التحرير واشترك في برنامج فلسطين في الاذاعة السورية وبرنامج الطلبة وكان يكتب بعض الشعر والمسرحيات والمقدمات الوجدانية .

وكانت نتيجة معطى ذلك وباحد بعده شقيقه التي كان لها في هذه الفترة تاثير كبير على حياته .

واثناء دراسته الثانوية برز بموهبه في الادب العربي والرسم وعندما انهى الثانوية عمل في التدريس في مدارس اللاجئين وبالذات في مدرسة الالياس بدمشق والحق بجامعة دمشق لدراسة الادب العربي واسند اليه انذاك تنظيم جناح فلسطين في معرض دمشق الدولي وكان معظم ما عرض فيه من جهد غسان الشخصي . وذلك بالاضافة الى معارض الرسم الاخرى التي اشرف عليها .

وفي هذا الوقت كان قد انخرط في حركة القوميين العرب واشترك الى جانب فلسطين في الاذاعة السورية وبرنامج الطلبة وكان يكتب بعض الشعر والمسرحيات والمقدمات الوجدانية .

وكانت نتيجة معطى ذلك وباحد بعده شقيقه التي كان لها في هذه الفترة تاثير كبير على حياته .

واثناء دراسته الثانوية برز بموهبه في الادب العربي والرسم وعندما انهى الثانوية عمل في التدريس في مدارس اللاجئين وبالذات في مدرسة الالياس بدمشق والحق بجامعة دمشق لدراسة الادب العربي واسند اليه انذاك تنظيم جناح فلسطين في معرض دمشق الدولي وكان معظم ما عرض فيه من جهد غسان الشخصي . وذلك بالاضافة الى معارض الرسم الاخرى التي اشرف عليها .

وفي هذا الوقت كان قد انخرط في حركة

غسّان أخي

آزور كميتي بعد ان رحل بنوها ..
ازورها وقد ازدحمت فيها الاقلام تكتب من رسالة نبيها بعد ان كانت تزدحم فيها الوجوه تحج الى قلقه والاستماع اليه .

غسان اخي ،

ازورك وانا اتوقع لقاءك خلف مكتبك او عند الباب او في احدى الغرف ، اتسامتك .. وصوتك .. وعيناك الكبريتان .. كل شيء كما هو .. ما زال واقفا ستعود اليه سن لحظة واخرى ..

غسان اخي ،

انت علمتنا كيف يكون الحزن الكبير .. كيف يكون الحزن من الداخل .. عنيفا .. عميقا في القلب ولي الشرايين علمتنا كم تكون الدموع ثاقبة اذا ما قيست باختناق القلب .. علمتنا وانت تتحدث عن رفاقك الشهداء ان لا نحس بفيافيهم ، ذلك ان نهايتهم الجسدية تعني بداية طريقهم التي اختاروها .. الموت .. رفيقك هذا الاخر الذي كنت تتحدث عنه في الغد ..

الموت الكبير الذي ابيت الا ان تكونه .. كنت في حياتك الامثولة الرمز وابيت في استشهادك الا ان تكون الامثولة الرمز .. تعمد الكلمة بالدم .. دمك الذي ارتوى بحب وطنك .. فلسطين التي كنتها .. وكانت فيك .. شفافية مشفك لها كما لم يعشق فيس ليلى ..

غسان اخي ،

بكتابك الناشىء لانا لم نكن في مستوى رجولتك .. تحديت الموت كما كنت تتحدى الضياع والياس والانسحاق .. جعلتنا نحس بالتفاهة امام استشهادك باشد مما كنا نحس بها اثناء حياتك .. نعدو .. نعدو .. وهيهات ان نلحق بك ..

غسان اخي ،

انت تعرف كم اخاف عليك .. كم احبك .. كم اعشق كلماتك .. كم سرت معك .. خلفك .. خلفك .. كم تمنيت ان اكون امامك مرة واحدة .. ارحل قبلك لتكتب في رحيلي كلمة واحدة .. حرفا واحدا من احرف كلماتك التي طالما عشقتها ..

ولكن لماذا هشمت علي بهذه يا غسان .. لماذا .. لماذا ؟ ■

في دمشق شارك اسرته حياتها الصعبة . ابوه المحامي عمل اعمالا بدائية بسيطة ، اخته عملت بالتدريس ، هو واخوه صنعوا اكياس الورق ، ثم عملا ، ثم قاموا بكتابة الاستدعاءات امام ابواب المحاكم وفي نفس الوقت الذي كان يتابع فيه دروسه الابتدائية .

بعدها تحسنت احوال الاسرة وافتتح ابوه مكتبا لممارسة المحاماة فاخذ هو الى جانب دراسته يعمل في تصحيح البروفات في بعض الصحف

والتي سبقها والتي تلتها وقد اعد هذه الدراسة لكنها لم تنشر (نشرت في مجلة شؤون فلسطين) اما القصة فلم يكتب لها ان تكتمل بل اكتملت منها فصول نشرت بعض صورها في كتابه « عن الرجال والبنادق »

كانت لغسان عين الفنان النفاذة وحسه الشفاف المرهف فقد كانت في ذهنه في الفترة الاخيرة فكرة مكتملة لقصة رائعة استوحاها من مشاهدته لاحد العمال وهو يكسر الصخر في كاراج البناية التي يسكنها وكان ينوي تسميتها « الرجل والصخر » .

هذا المجال يستدعي دراسة مفصلة نامل ان تتم .

• غسان الرائد •

نجب وضع دراسة مفصلة عن حياة غسان الادبية والسياسية والصحفية ولكننا في هذه العجالة نكتفي باير اد امثلة عن يادته بذكر بعض المواقف في حياته وعبها الذاكرة :

كان غسان اول من كتب عن حياة ابناء الخليج المتخلفة ووصف حياتهم وصفا دقيقا مذهلا وذلك في قصته الموضوع للقاء وزار اباها المخمات وكانت هي شديدة الاثر بحماس غسان للقصة وكذلك بالظلم الواقع على هذا الشعب . ولم يمض على ذلك عشرة اسام الا وكان غسان يطلب يدها للزواج وقام بمعركها على عائلته كما قامت هي بالكتابة الى اهلها . وقد تم زواجهما بتاريخ ٦١/١٠/١٩ ورزقا بعاثر في ٦٢/٨/٢٤ وبلبلى في ٦٦/١١/١٢ .

بعد ان تزوج غسان انطفت حياته وخاصة الصحيه اذ كثيرا ما كان مرضه سببا له مضاعفات عديدة لعدم انتظام مواعيد طعامه .

حين تزوج غسان كان يسكن في شارع الحمراء ثم انتقل الى حي المزرعة ، ثم الى مار نقلا ومنذ اربع سنوات حين طلب منه المالك اخلاء شقته قام صهره بشراء شقة الحالية وقدمها له باسجار معقول .

وفي بيروت اصيب من مضاعفات السكري بالنقرس وهو مرض بالمفاصل بسبب الما مبرحه بعقد المريض اباها . ولكن كل ذلك لم يستطع يوما ان يتحكم في نشاطه او قدرته على العمل فقد كان طاقه لا توصف وكان يستقل كل لحظه من وقته دون كلل .

وبرغم كل امهماكه في عمله وخاصه في الفتره الاخيره الا ان حبي بيته واولاده عليه كان شديدا . كانت ساعات وجوده بين زوجته واولاده من اسعد لحظات عمره وكان يقضي اسام عطله (اذا سنى له ذلك) يعمل في حديقه منزله ويضفي عليها وعلى منزله من ذوق الفنان ما يلفت النظر رغم بواضع قيمه موجوداته .

• غسان القصية •

ادب غسان وانتاجه الادبي كان متفاعلا دائما مع حياته وحياه الناس وفي كل ما كتب كان يصور واقعا عاشه او تاثر به .

« عائد الى حيفا » وصف فيها رحلة مواطني حيفا في انتقالهم الى عكا وقد وعى ذلك وكان ما يزال طفلا يجلس ويراقب ويسمع تهتركوت هذه الاحداث في مخيله فيما بعد من نوادر الرواية .

« ارض البرتقال الحزين » تحكي قصة رحله عائله من عكا وسكناهم في الغازية .

« موت سرير رقم ١٢ » استوحاها من مكوثه بالمستشفى بسبب المرض .

« رجال في الشمس » من حياته وحياة الفلسطينيين بالكويت واثر عودته الى دمشق في سيارة قديمة عبر الصحراء ، كانت المعاناة ووصفها هي تلك الصورة الظاهرية للاحداث اما في هدفها فقد كانت ترمز ونصور ضياع الفلسطينيين في تلك الحقبة وتحول قضيتهم الى قضية لقمة العيش مثبتا انهم قد غلوا الطريق .

في قصته « ما تبقى لكم » التي تعبر مكمله « لرجال في الشمس » يكشف البطل طريق القضية ، في ارض فلسطين وكان ذلك تبشيرا بالعمل الفدائي .

قصص « ام سعد » وقصته الاخرى كانت كلها مستوحاه من ناس حقيقيين .

في فترة من الفترات كان يعد قصة ودراسه عن ثورة ٣٦ في فلسطين فاخذ يجمع الى ناس المخيمات ويستمع الى ذكرياتهم عن تلك الحقبة

« موت سرير رقم ١٢ » ولا استطيع ان اؤكد اذا كان سواه قد كتب عن ذلك من بعده .

★★★

في اوائل ثورة ٥٨ بالعراق ايام حكم عبد الكريم قاسم زار غسان العراق ورای بحسه الصادق انحراف النظام فعاد وكتب عن ذلك بتوقيع «ابو العز» مهاجما النظام فقامت قيامة الانظمة المتحررة ضده الى ان ظهر لهم انحراف الحكم فعلا فكانوا اول من هنأوه على ذلك مسجلين سبقه في كتاب خاص بذلك .

★★★

بعد ان استلم رئاسه تحرير جريدة « المحرر » اليومية استحدث صفحة للتعليقات السياسية الجادة وكانت على ما اذكر الصفحة الخامسة وكان يحررها هو وآخرون . ومنذ سنة تقريبا استحدثت احدى كبريات الصحف اليومية في بيروت صفحة مماثلة وكتب

أروع ما كتبت لي

وبدت ليس ..

في ازهى ليالها وهي تصبح بخالها وحبيبها : مالك تاخرت ؟.. كانت في اسعد لحظات عمرها فقد وعدها غسان ان يعوضها عن اليوم السابق الذي رافقته فيه جميع الاسرة ما عداها حيث لازمت المنزل ظيلة النهار على امل ان تنزل لي المساء مع خالها لتودع احد اقاربهم المسافر .. كانت الصبية تقفز فرحا وهي تنزل الدرجات القليلة الى حيث كانت تقف السيارة بانتظار الرحلة الطويلة ..

« اليوم القضي النهار مع نجوى .. سوف يحضر والدي من سفره .. ويجدهم بانتظاره .. ولا يجدني .. سوف يكلمني بالهاتف .. سانادل عليه كعادتي .. الست وحيدته وكبرى اولاده .. سيخبرني اني قبلت في كلية الطب .. سينزل في المساء مع خالي غسان ليراني .. سوف نسهر ونضحك .. وخالي غسان سيكون لوطب السهرة كالعادة .. سوف يضحكنا كثيرا ويمازحنا كثيرا وسوف يردد على مسمع منا .. « والله كبروا هالبنات .. » انه ما زال يحبني كثيرا منذ ان رات عيناي النور .. حتى قبل ان اكون متفوقة في دروسي .. وقبل ان انهي دراستي الثانوية في السادسة عشرة .. آه هذا خالي غسان كم احبه .. كم اسعدني كلما قدم لي هديته السنوية .. من بين كل اسرته .. لم يعتد ان يقدم لاحد سواي .. كم انا فخورة بحبه .. كم اسعدني ورفيقاتي بحسدتني لان خالي هو غسان .. كم اسعدني وانا اعرض هديته لي عليهم كتاب مقدس اخشى عليه ان يلمسه ..

ها هو خالي غسان يرافقني وحدي من دونهم جميعا ..

منذ زمن طويل وامي لم تعتقني هكذا .. تحملني بين يديها .. تهدهدني .. وتخشى ان تشدني اليها .. لم تربحني الى جانب العروق الخضراء .. الى جانب التراب الذي يحبه غسان .. خالي .. ها هي تنظر في عيني .. تهمس لي .. تربحني .. تستاذنني لتعود تفتش عن غسان .. خالي يحوم في الفضاء عاليا .. عاليا .. لا تبلغه النجوم .. كبيرا كبيرا لا تدانيه الجبال .. طوال عمري لم احلم بان انسانا يمكن ان يضم بجسده كل هذه الكمية الهائلة من التراب والخضب .. كما يفعل خالي الان .. كل همره كان يفعل ما لا يقدر عليه الاخرون ..

هذا اخي يركع الى جانبي يسالني ان كنت ساساعده في دروسه .. وافتح فمي .. واشرق بحبكم .. وافتح عيني .. اضم صوتكم ..

ويحك يا امي .. اين انت .. اين ابي .. اين انتم جميعا ؟.. ولكن ما عليكم .. انتم مطمئنون .. كما كنتم دائما حين اكون معه .. ان خالي معي .. غسان هنا معي .. وعدني ان اكون رفيقته الوحيدة .. طول عمره لم ينكث بوعد لي .. كم انا سعيدة برفقته .. سعيدة .. سعيدة حتى الموت .. حتى الشهادة .. وما اروعها شهادة على درب غسان وفي ركابه .. انه لم ينس ان يكتب لي هذا العام ايضا .. كتب .. وكا تاروع ما كتب لي .. الشهادة معه .. » ■

من كتب واحدهم استاذ صحافه في الجامعه الاميركيه كنوا في تعريظ هذه الصفحة وساءني ان يجهل حتى المحتضون بالصحافة ان غسان قام بهذه التجربه الناجحة منذ اكثر من عشر سنوات وقلت له لماذا لا تلفت نظرهم الى ذلك ولكنه رفض .

★★★

لا احد يجهل ان غسان كنفاني هو اول من كتب عن شعراء المقاومة ونشر لهم وتحدث عن اشعارهم وعن ازجالهم الشعبية وفي الفترات الاولى لتعريف العالم العربي على شعر المقاومة لم تخل مقالة كتبت عنهم من معلومات كتبها غسان واصبحت محاضرته عنهم ومن ثم كتابه عن «شعراء الارض المحتلة» مرجعا مقررا في عدد من الجامعات وكذلك مرجعا للدارسين .

★★★

الدراسة الوحيدة الجادة عن الادب الصهيوني كانت لغسان ونشرتها مؤسسة الابحاث بعنوان « في الادب الصهيوني » .

★★★

اشهر الصحافيين العرب يكتب الان عن حالة اللاسلم واللاحرب ولو عدنا قليلا الى الاشهر التي تلت حرب حزيران ٦٧ وتابعنا تعليقات غسان السياسية في تلك الفترة لوجدناه يتحدث عن حالة اللاسلم واللاحرب اي قبل خمس سنوات من الاكتشاف الاخير الذي تتحدث عنه الصحافة العربية والعالمية الان .

★★★

اننا نحتاج لوقت طويل قبل ان نستوعب الطاقات والمواهب التي كان يتمتع بها غسان كنفاني . هل نتحدث عن صداقاته ونقول انه لم يكن له عدو شخصي ولا في اي وقت واي ظرف ام نتحدث عن تواضعه وهو الرائد الذي لم يكن يهمه سوى الاخلاص لعمله وقضيته ام نتحدث عن تضحيته وعفة يده وهو الذي عرضت عليه الالوف والملايين ورفضها بينما كان يستدين العشرة ليرات من زملائه . ماذا نقول وقد خسرناه ونحن اشد ما نكون في حاجة اليه ... الى ايمانه واخلاصه واستمراره على مدى سنوات في الوقت الذي تساقط سواه كاوراق الخريف ياسا وقنوطا وقصر نفس ...

كان غسان شمعا في رجل .. كان قضية .. كان وطنا .. ولا يمكن ان نستعيده الا اذا استعدنا الوطن .